

وظائف العنوان

د/ بلقاسم حمام - جامعة ورقلة

ملخص

إن العنوان هو المدخل الحقيقي لأي كتاب كان وقد أدى انتباه العلماء الغربيين إلى مكانة العنوان ودوره إلى تكثيف الدراسات في هذا المجال إلى أن استوى علما قائما بذاته هو علم العنونة **Titrologie**، وقد أدى تنوع العناوين من حيث الطبيعة والمجال إلى صعوبة دراسة الوظائف التي يمكن أن يؤديها كل نوع، فالعنوان في المجال العلمي التكنولوجي يكون أكثر ارتباطا بالكتاب أكثر من العنوان في الدراسات الإنسانية (علم اللغة، علم الفلسفة، علم التاريخ...) ويزداد هذا الارتباط ضعفا كلما اقتربنا من الميادين الإبداعية (وخاصة الشعر). وقد اخترنا في هذا المقال أن نقارب بعض عناوين أشهر المعاجم القديمة، باعتبارها خطابا عن الخطاب حيث يوجهها -العناوين- أصحابها إلى القارئ، لينقلوا إليه من خلالها نظرتهم للغة كخطاب متجدد ومتنوع.

Le titre d'un livre peut être considéré comme le véritable accès à son contenu ; et c'est l'intérêt porté par les occidentaux au statut du titre qui est à l'origine de nombreuses études fondatrices de la science Titrologique. La diversité de la nature et contenus des titres ne facilite pas la détermination des fonctions que peut remplir chaque type de titre. Ainsi le titre dans le domaine des sciences technologiques est plus révélateur du contenu qu'il l'est dans le domaine des sciences humaines (sciences du langage, la philosophie, l'histoire...), ce rapport s'atténue lorsqu'il s'agit des domaines de création ou les modes d'expression telle que la poésie.

Nous allons procéder dans cet article à l'approche de quelques titres de dictionnaires arabes anciens en tant que discours sur un discours, et à partir desquels- c'est-à-dire les titres- les auteurs ont tenté de transmettre aux usagers leurs points de vue sur la langue en tant que discours diversifié et dynamique.

تهدف هذه الدراسة إلى النظر إلى وظائف العنوان على أساس أنه خطاب في سياق تواصلية يرمي من خلاله صاحبه إلى إيصال رؤيته المتعلقة بمادة الخطاب (اللغة) إلى المتلقي بل وإقناعه بهذه الرؤية.

وقد اخترنا مجال المعاجم العربية القديمة لأنها من أحسن المجالات تمثيلاً لهدف دراستنا هذه، ومما يؤكد ذلك أن العربية لم تعرف معجماً واحداً، ومنهجاً فريداً في جمع اللغة، بل لم تعرف حجماً ثابتاً لمواد اللغة، فهناك عشرات المعاجم - وأنا أقصد المعاجم العامة أو المختصة ولو لم يكن المعجم ينطلق من رؤية خاصة لمفردات الخطاب (المستعمل والمهمّل)، لاكتفت العربية بمعجم واحد ثابت، وفي أحسن الأحوال يوسع هذا المعجم من حين لآخر، ولكن الأصل يبقى فرداً فريداً، ذلك لم يحدث، ومن ثم فنحن نقرأ هذا التعدد انطلاقاً من نظرة كل صاحب معجم للخطاب العربي سواء من حيث حجمه - إضافة كلمات أو معاني جديدة - أو من حيث شكله - إضافة أساليب وطرائق مبتدعة.

ولا نتصور أبداً أن عالماً ما يصنع معجماً لمفردات الخطاب⁽¹⁾، دون أن يكون قد اطلع على جهود من سبقوه، بل ما من صاحب معجم إلا ويذكر في مقدمة كتابه جهود سابقه، فلو لم يلمس من نفسه القدرة على التجديد في المادة أو المنهج لما تجرأ على دخول هذا المضمار الصعب، ومن ثم فقد حرص كل مؤلف أن يضع عنواناً لكتابه يحقق له هدفين اثنين :

1- التبشير بالجديد الذي لم يسبق إليه.

2- التعبير عن رؤيته المميزة للغة وللخطاب.

وقبل التعرض لأشهر العناوين المعجمية، نوضح معنى كلمة العنوان ونبين وظيفته ودوره في إبراز مضامين الكتاب.

المعاني اللغوية للعنوان : إذا عدنا إلى المعاني التي تدور فيها مادة (ع ن ن) عند ابن منظور⁽²⁾ مثلاً فإننا نجدها كالاتي :

1) الظهور "عَنْ الشَّيْءِ يَعْنِي وَيَعْنِي عَنَّا وَعنوانا : ظهر أمامك"

2) الاعتراض والإحاطة "وَعَرَّ يَعْرُ وَيَعْنِي عَنَّا وَعنوانا واعتن : اعترض، وعرض... وقد سمي العنوان من اللجام عنانا، لأنه يعترضه من ناحيته، لا يدخل فمه منه شيء"

"وَعَرَّ الْكِتَابَ يَعْنِي عَنَّا، وَعَنْتُهُ، كَعَنْتُهُ، عَنْتُهُ، وَعَنْتُهُ، وَعَنْتُهُ بمعنى واحد مشتقاً من المعنى... وسمي عنواناً لأنه يَعْنِي الْكِتَابَ من ناحيته، وأصله عُنَان، فلما كثرت النونات قبلت إحداها واوا، ومن قال علوان الكتاب جعل النون لاما، لأنه أخف وأظهر من النون."

(3) الحبس : "والتعنين الحبس" والعنان الحبل والعنة : الحظيرة من الخشب أو الشجر تجعل للإبل والغنم تحبس فيها.

(4) الخفة : "ويقال للرجل إنه طرف العنان، إذا كان خفيفاً".

(5) الأبقياء : "يقال ذل عنان فلان إذا انقاد".

(6) السبق : "والعنون من الدواب : التي تباري في سيرها الدواب فتقدمها".

(7) الامتلاء : العنان بالفتح : السحاب... وقبل العنان التي تمسك الماء.

(8) الرمز والإيحاء : ويقال للرجل الذي يعرض ولا يصرح، وقد جعل كذا وكذا عنواناً لحاجته... وكلما استدلت بشيء تظهره على غيره فهو عنوان له.

وقد جعل ابن فارس للعين والنون أصلين : "أحدهما يدل على ظهور الشيء واعتراضه، والآخر يدل على الحبس" ⁽³⁾ ، وسنثمر هذه المعاني الحقيقية منها والمجازية حين نتعرض لوظيفة العنوان.

المعنى الاصطلاحي للعنوان :

يعرف جيرار فيقنر G. VIGNER العنوان بأنه "نص جزئي MICRO-TEXTE ذو شكل وحجم متميزين (كلمة، عبارة، جملة...) والذي يهدف إلى تعيين شيء، أو نظام سيميائي معين (نص، رسم، عمل، موسيقى، عرض) لصالح قارئ عمومي" ⁽⁴⁾.

ويتضح لنا من هذا التعريف أن العنوان :

نص جزئي : أي أنه نص بأفاق واسعة لا تقف عند حدود التركيب الذي يكون عادة قصيراً ومحدوداً، ولكن هذه الآفاق بقدر ما تسمح للمتلقي بالتجوال خلالها، بقدر ما تحيله إلى النص الكلي في فضاء أوسع.

لقارئ عمومي : بمعنى أن جمهور المتلقين للعنوان ، يكون أكثر اتساعاً من الجمهور المتلقي لمادة الكتاب ذاته، أو النظام السيميائي المقصود.

وظائف العنوان :

بما أن العنوان نص خطابي متميز من حيث الشكل والحجم، فهو متميز أيضا من حيث الوظيفة أو الوظائف، وستعرض الآن بعض آراء المختصين المحدثين، ثم نعود لضبط لوظائف العنوان انطلاقا من المعاني اللغوية التي ذكرناها آنفا.

- يرى جيرار قانتر أن للعنوان وظائف أربعاً :

1- التسمية

2- التعيين

3- الإشهار

4- الشرح⁽⁵⁾

بينما هي عند كل من S. REZZOUG ، C. ACHOR كآلاتي :

1- التعبئة Emballage

2- التذكر

3- الإزاحة

4- القطيعة

5- الاستهلال⁽⁶⁾

-وهي عند هانري ميتران H. Mitterand :

1- التعيين

2- التحريض

3- الأيديولوجية⁽⁷⁾

-وعند جيرار جونيت G. Genette نجد الوظائف الآتية :

1- الإغراء

2- الإيحاء

3- الوصف

4- التعيين⁽⁸⁾

وبما أننا أمام كم هائل من المعاني اللغوية، وعدد غير قليل من الوظائف فإننا نقسم وظائف العنوان

حسب محورين كبيرين :

1. محور يعتمد علاقة العنوان بمضمون الكتاب (المرجعية / والإحالية)

2. ومحور يعتمد علاقة العنوان بالمتلقي (التواصلية)

-أ- المحور الأول وتندرج فيه الوظائف الآتية:

- التسمية
- التعيين
- الإشهار
- الشرح
- التبعئة
- القطيعة
- الإزاحة
- الوصف

-ب- المحور الثاني ويضم الوظائف الآتية :

- الشرح
- التذكير
- التحريض
- الإيديولوجية
- الإغراء
- الإيحاء

ونحن إذا تأملنا المعاني اللغوية التي أوردناها آنفا نجد أنها تغطي كل الوظائف السابقة في إطار

المحورين اللذين حددناهما، ويظهر ذلك فيما يلي :

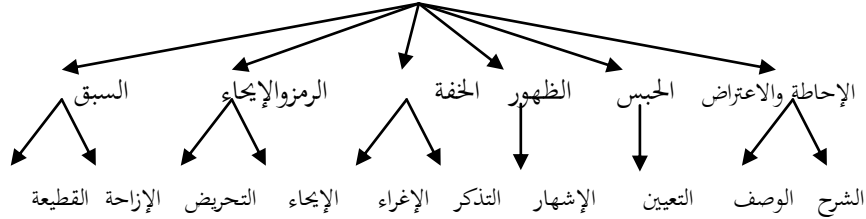
المحور الأول : ويتعلق بعلاقة العنوان بما وراءه من مضمون (الوظيفة المرجعية / الإحالية)

1) الإحاطة والاعتراض⁽⁹⁾ : إذ العنوان علامة / نص مضغوط، تجتمع فيه أطراف الكتاب كاملة، ولذلك كثيرا ما يوضع أخيرا، بعد اكتمال العمل، وهذا التأخر في الميلاد سببه هو احتياج المؤلف في وضع العنوان إلى أن تجتمع عنده كل الجينات التي تحمل خصائص الكتاب⁽¹⁰⁾.

2) الحبس والامتلاء : فالعنوان إطار يجمع -رغم صغره- بين جنياته أطراف الكتاب، حتى أنه يصبح مقياسا لتحديد العناصر الخارجة عن إطاره، وربما يستدعي العنوان عناصر أخرى لم تكن قبل في حسابان المؤلف، وحتى وجود العنوان فنيا فوق الواجهة، ووقوع النص الكامل بين دفتين يجعل من الكتاب سجنا، ويجعل من العنوان مفتاحا ومغلاقا له.

- المحور الثاني : ويتعلق بوظيفة العنوان تجاه القارئ (المتلقي الوظيفية التواصلية، الأيديولوجية) ويندرج تحته:
- الظهور : ويكون ذلك على مستوى حجم الكتابة، التي عادة ما تكون بشكل أوضح أو بمقياس أكبر مما عليه نص الكتاب، فالعنوان هو الطعم الذي يصطاد به الكاتب قارئه، وهذا الحجم هو الذي يجعل العنوان أكثر مقروئية من الكتاب نفسه، فالكتاب له جمهوران جمهور قليل متخصص يقرأ المضمون، وجمهور عريض واسع يقرأ العنوان.
 - الخفة : إذ يراعي الكاتب الكلمات العذبة والبسيطة غير المبتذلة، حتى يجعل النطق به سهلاً فيكتب له بذلك الرواج والإشهار.
 - الرمز والإيحاء : يصبح بذلك العنوان نافذة فسيحة يطل من خلالها القارئ على عالم الكتاب، ويشير فيه حتى قبل قراءة المحتوى عالماً من المعاني، وسيلاً من التساؤلات التي تقوده إلى رحلة بحث لا تنتهي إلا بموت خاصية الإيحاء والرمز في العنوان.
 - السبق : لا يخفى علنا - وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً أن أي كاتب قبل أن يضع عنواناً لكتابه ينظر في العناوين التي سبقت في ذلك المضمار فيحاول أن يتميز عنها، بأن ينحو نحواً لم يسبق إليه، يزيد الكتاب شهرة، ويزيد الجمهور شوقاً، وهذا ما يجب أن يلمسه القارئ في العنوان حتى يقبل على الكتاب⁽¹¹⁾.
- وهذا مخطط يبين تجلي وظائف العنوان في المعاني اللغوية التي وردت في لسان العرب.

وظيفة عنوان المعجم



ونمر الآن إلى دراسة هذه الوظائف مركزين على الوظيفية الإحالية والوظيفة الأيديولوجية في مجموعة من عناوين المعاجم العربية وقد وقع اختيارنا على :

- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ)
- تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393 هـ)
- أساس البلاغة : جار الله القاسم محمود عمر الزمخشري (ت 538 هـ)
- لسان العرب : لابن منظور (ت 711 هـ)
- القاموس المحيط : الفيروزآبادي (ت 817 هـ)

I- الوظيفة الإحالية / المرجعية

1- عنوان المعجم وفكرة استحالة الإحاطة بمفردات وأساليب الخطاب :

إن كل هذه العناوين التي اخترناها تنطلق من فكرة استقرت في ذهن واضعي المعاجم - وهم أكثر الناس تدقيقاً في الخطاب - وهي أنه لا يحيط باللغة إلا نبي بمعنى أن الإنسان العادي بمؤهلاته الخاصة وإن كانت جيدة لا يستطيع أن يحيط بجميع مفردات الخطاب اللغوي، إلى أن تتدخل السماء بقدراتها اللامتناهية فتزود إنساناً ما بمؤهلات غير عادية تمكنه من الإلمام باللغة⁽¹²⁾.

وقد جاءت هذه الفكرة عند علماء المعاجم في مظهرين :

-أ- صورة سلبية أين حاول أصحابها - مع اقتناعهم باستحالة ذلك عملياً - ابتكار طريقة نظرية - عقلية - للإحاطة باللغة، كطريقة التقليلات في معجم العين لأن الخليل "رأى أنه لا يمكن حصر جميع مفردات اللغة إلا باتباع نظام حسابي دقيق"⁽¹³⁾.

ولقد تمكن الخليل بهذه الطريقة من الوقوف على المستعمل من العربية والمهملة "فقد الكتاب على المستعمل وأهل ما عداه"⁽¹⁴⁾.

وقد جاء في مقدمة المؤلف "أراد أن تعرف به العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها فلا يشذ عنه شيء من ذلك"⁽¹⁵⁾، ولذلك علق محقق العين قائلاً "والعين بهذا أول معجم في العربية، ولعله معجم موعب وقد أنجز في زمن لم تكن الأذهان الدارسين ممهدة لتقبل مثله"⁽¹⁶⁾.

وإذا نحن عدنا إلى دلالة لفظ (عين) بغض النظر على أنه حرف هجاء وبدأ به الخليل لوقوع مخرجه في الخلق فإننا نجده يدل على⁽¹⁷⁾ :

- الشرف والرفعة : "فلان عين الجيش يريدون رئيسه... وأعيان القوم أشرفهم وأفاضلهم".

- الماء وكل ما يتعلق به: "وعين القناة مصبها، وعانت البئر كثر ماؤها،... والعين مطر أيام لا يقلع".
- الجديد : وقبل العَيْن والعَيْنُ : الجديد وكذلك قرية عين : جديدة.
- الجودة : وعين كل شيء خياره.

ولا شك أن الخليل حين وضع معجمه شعر بهذه الدلالات، لأن معجمه هو أول معجم في العربية له من الجودة والجودة ما لم يسبق إليه، كما أنه بالنظر إلى منهجه الإحصائي جعله كمنبع الماء الذي لا ينضب مع استحضارنا لمفهوم الماء ودوره ومكانته عند العرب - حيث تتكاثر مفردات اللغة فيلد المستعمل المهمل، ويصبح المهمل مستعملاً، وقد يهجر المستعمل بعد زمن الخليل، وذلك ما وقع فعلاً، فالثبات في الخطاب اللغوي أمر غير مطروح.

ومن دلالات لفظة العين أيضاً "اسم لما عن يمين قبة أهل العراق" ولا ننسى أن الخليل من أهل العراق (البصرة).

والفكرة نفسها يحيل عليها بشكل مباشر وظاهر عنوان الفيروزايادي (القاموس المحيط) خاصة إذا علمنا أن لفظة القاموس تعني - لغةً - البحرَ وأبعدَ موضع فيه غوراً⁽¹⁸⁾، ولفظة المحيط تعني الامتداد والشساعة، وعليه فهو هدَفَ إلى الإحاطة بمفردات الخطاب اللغوي في الاتجاهين العمودي والأفقي، العمودي من حيث حصر الدلالات المختلفة للفظ الواحد، والأفقي من حيث تعداد أكبر قدر من مفردات الخطاب. ودليل ذلك قول الفيروز أبادي في مقدمته مركزاً على خاصية الكم في معجمه من حيث الألفاظ ومن حيث الدلالات، "ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك غير أنه فاتته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة"⁽¹⁹⁾.

"وقد بلغ عدد المواد التي زادها على مواد الصحاح عشرين ألفاً، وهو نصف ما سجله الجوهري"⁽²⁰⁾.

2- عنوان المعجم وفكرة مستويات الخطاب (مستوى الصحة / البلاغة) :

أ- مستويات الخطاب بمقياس الصحة والضعف :

لقد اهتم المعجمون بشكل واضح بمبدأ الصحة الانتحال في إثبات مفردات الخطاب وتراكيبه، ومما يوحي بذلك من عناوين المختارة، الجزء الثاني من عنوان الجوهري (تاح اللغة وصحاح العربية)⁽²¹⁾،

وهذه الصحة ارتبطت عندهم بالسماع في إطاره الزماني والمكاني والذين يرتقيان بالمعجم من معجم مفردات للخطاب إلى معجم لأساليب الخطاب ولذلك قال الجوهري في مقدمته : " فإني قد أودعت في هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها"⁽²²⁾ ، ثم يبين طريقة جمعها وتمحيصها " بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية... ولم آل في ذلك نصحا ولا ادخرت وسعا"⁽²³⁾، وهنا تظهر فكرة مستويات الخطاب

(فصيح وغير فصيح) بدليل أنه "اعتنى بمسائل الصرف والنحو، وأشار إلى ضعف اللغات ومذمومها وغير ذلك"⁽²⁴⁾ ، ومن هنا أيضا تظهر علاقة الجزء الأول من العنوان (تاج اللغة) بالجزء الثاني (صحاح العربية)، فكما أن التاج يكون لأكرم جزء في الإنسان وأعلاه (الرأس) فكذلك (الصحة) تكون تاجا محيطا بهذا المستوى من الخطاب (المستوى الأعلى الصحيح).

كما نشير هنا إلى أن لفظة (صحاح) في هذا العنوان تومئ إلى ميدان آخر من ميادين علم الشريعة ، وهو علم الحديث الذي اهتم بفكرة الصحة والضعف والتي تقوم بدورها على أساس دراسة السند ، وقد استفاد علماء اللغة في هذا الجانب بلا شك من جهود علماء الحديث، وأولوا عملية الجرح والتعديل أهمية معتبرة⁽²⁵⁾، ولذلك نجد تطابقا كبيرا في المصطلحات المستعملة (المتواترة، الأحاد، المرفوع والمنقطع، طرق التحمل).

وقد انتبه بعض الدارسين المحدثين وهو الأستاذ الحمزاوي في كتابه من قضايا المعجم العربي إلى أن فكرة (الصحاح) تعود إلى الجو الاجتماعي والثقافي للحياة العربية في القرن الرابع، إذا تنوعت وكثرت المعروضات والمنتجات العلمية والعقلية والمذهبية واللغوية، وتعددت التيارات والاتجاهات السياسية، فحدثت ردة إنكماشية تجمع أطراف الأصالة التي تبددت ، وتؤلف بين أوشاج الصحة على كل صعيد وفي كل ميدان، ولعل أكثر الميادين حاجة إلى مثل هذا التجميع والتحصين هو ميدان اللغويات، لأنه بدوره حصن يحمي ما وراءه من علوم شرعية بما تمثله من ثقل وأهمية في الحضارة العربية والإسلامية.

-ب- مستويات الخطاب بمقياس (العادي - البلاغي) :

بعدما فرز علماء المعاجم مفردات الخطاب من حيث الصحة، والضعف - ومعظمهم بقي في هذا الجانب ولم يتجاوزوه- انتقلوا إلى ضبط مفردات الخطاب وتصنيفها حسب المستوى الذي تنتمي

إليه بمقياس (العادي - الراقي) ، (العامي، الفني) وهذا اقتناعاً منهم أن الصحة لا تعني البلاغة والفصاحة (المستوى الفني)، وقد جاء هذا الانتباه عند المعجميين متأخراً وقد كان صاحب السبق فيه، الزمخشري في معجمه (أساس البلاغة).

ونحن إذا أردنا أن نستنتج هذا العنوان فإننا نلاحظ أن الكاتب قصد إلى مستوى معين من الخطاب (وهو الخطاب البلاغي) في مقابل (الخطاب العادي أو العامي). حيث يقول : " ومن خصائص هذا الكتاب تميز ما وقع في عبارات المبدعين... ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف... يسوق الكلمات متناسقة لا مرسله بددا... مع الاستكثار من نوايغ الكلم الهادية إلى مرشد حر المنطق"⁽²⁶⁾.

وقد دفعه إلى ذلك مجموعة من الأسباب :

- 1- اقتناعه أن الإحاطة بمفردات الخطاب جميعها غير ممكن، وربما إن حاول ذلك فلن يزيد على مجهود من سبقه في هذا الأمر شيئاً، بل إن الإحاطة بمفردات المستوى البلاغي - وهو أقل مساحة من المستوى العادي بكثير - غير متيسر ومن ثم رام حصر المفردات التي تكون أساساً ومنطلقاً لبناء هذا المستوى ولذلك جعل من خصائص معجمه "تأسيس قوانين فصل الخطاب، والكلام الفصيح"⁽²⁷⁾.
- 2- إيمانه أن الخطاب القرآني هو الخطاب المثالي، الذي هو نموذج ينسج على منواله، بعد معرفة أسباب البلاغة فيه، وهذا يحتاج إلى أساس يكون منطلقاً لتحقيق ذلك يقول الزمخشري "ولماذا أنزل الله تعالى كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة... وإلى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير إليه محمود عمر الزمخشري عفا الله تعالى عنه في تصنيف كتاب أساس البلاغة"⁽²⁸⁾.
- 3- طبيعة نظريته إلى وظيفة المعجم وهي تبين أساليب الخطاب قبل مفرداته بدليل أنه اعتمد التراكيب في تبين معنى المفردة، وكما ميز مستوى الحقيقة، ومستوى المجاز (الخطاب الثابت / الخطاب المتجدد)، وعليه فإنه لم يستعد مادة كتابه من معاجم سابقة وإنما أخذها من المقامات الحية عند العرب الفصحاء، أو من كتب الأدباء والشعراء، يقول الزمخشري : فليت له [أي أساس البلاغة] العربية، وما فصح من لغاتها وملح من بلاغتها، وما سمع في نواديها، ومن خطباء الحلل في نواديها، ومن قراضية نجد في أكلاؤها ومراتها، ومن سمسرة تهامة في أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها، وتساجعت به الرعاة على شفاة علبها، وما تقارضته شعراء قيس وتميم في ساعات المماننة، وما تزاملت

به سفراء ثقيف وهذيل في أيام المفاتنة، وما طولع في بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مُفْتَنَّةٍ، وجوامع كلم في أحشائها مجتنة"⁽²⁹⁾.

ولولا اقتناعه أن المعجم يتتبع مفردات اللغة وهي تحيا في خطابات متجددة، ما اعتمد على السماع المباشر من آل الحضر والمدّر، ومن الصغار والكبار⁽³⁰⁾، ولاكتفى بالرواية والنقل من الكتب، ولكنه بعلمه أن الخطاب يتغير ويتطور ويتجدد، راح يحاول رصد ما وقع لمفردات الخطاب العربي من تطور، وتنوع، وثرأ أكسبها إياه الاستعمال المستمر والحي.

4- انتباهه إلى الكفاءة الفردية في توليد الخطاب، فالمتكلم باللغة العربية والذي يهدف إلى إجادتها وإتقانها ليس عليه أن يحيط بجميع الخطابات البليغة (الشعرية والنثرية)، ولا يمكنه ذلك - وإنما يكفيه أن يجد أساسا متينا لخطاب عربي نموذجي، يكون منطلقا وأداة تتعامل معها الكفاءة الأدائية عند الفرد لتنتج خطابا بليغا متجددا، وقد سماها الزمخشري (بالقرينة الصحيحة) يقول "ومن حصل هذه الخصائص وكان له حظ من الأعراب والذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها... وأصاب ذروا من علم المعاني، وحظي برش من علم البيان... وكانت له قبل ذلك كله قرينة صحيحة... فحل نثره وجزل شعره، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين، ويخاطر المقرمين"⁽³¹⁾.

II- الوظيفة الأيدولوجية :

عنوان المعجم وأيدولوجية المؤلف :

بما أنه استقر عندنا أن المعجم كتاب فيه من الذاتية ما يبرز شخصية صاحبه، وينبئ عن قناعاته وآرائه، كما أشرنا إلى أن المعجم ليس رصفا وجمعا لمفردات الخطاب (الكلمات) وإنما هو تتبع لمستويات الخطاب، وطرائق الأداء، ونحن إذا رجعنا إلى عناوين المعاجم التي استهدفناها بهذه الدراسة لوجدنا أن هناك عنوانا متميزا ببعده الأيدولوجي، إذ يظهر موقف صاحبه من اللغة العربية باعتبارها خطابا محاطا بخطابات كثيرة يجمع بينها التنافس وطلب النفوذ، كما يشير العنوان إلى وضعية اللغة العربية في زمانه، وهو عنوان "لسان العرب" الذي جاء انطلاقا من اقتناع ابن منظور بـ :

- أن اللسان هو المظهر الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان (اللغة-المنطق-العقل).

- قداسة اللغة العربية وذلك بتفضيل الله تعالى لها عن سائر اللغات، بدليل أنه جعلها وعاء للقرآن الكريم، ونشير هنا إلى أن عبارة (لسان العرب) وردت في القرآن الكريم أكثر من مرة⁽³²⁾.
- تقصير المعاجم السابقة في الإحاطة والشمول ولذلك يقول في مقدمة المعجم "فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرق وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق... وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير..."⁽³³⁾ وهنا أيضا تظهر فكرة الإحاطة بمفردات الخطاب وأساليبه، في شيء من الجرأة والشجاعة، حتى إنه ليخيل لقارئ العنوان أنه لم يشد عنه شيء من كلام العرب بمستوياته المختلفة.
- البعد القومي والديني للغة العربية : فإذا علمنا أن اللغة العربية في عصر ابن منظور - كما يصرح هو بذلك - كانت تزاخمها لغات أخرى، حتى إن أبناء العربية أصبحوا يفضلون عليها غيرها من اللغات الأعجمية⁽³⁴⁾ ، وماتت عندهم نخوة الافتخار والاعتزاز بهذا اللسان ، فأراد الكاتب أن ينتصر للعربية، ويبين فضلها، ويحفظ أصولها، ولم يشه عن ذلك سخر الساخرين، وتهكم المتهاكمين، فصنع هذا المعجم، كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون⁽³⁵⁾.

- (1) - مفردات الخطاب عندنا أدق من مفردات اللغة لأن الأولى تنطلق من فكرة اللغة المستعملة لا اللغة النظرية، وعلماء العربية كما تعلم انطلقوا من أساليب الخطاب لتحديد مفردات الخطاب.
- (2) - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، دط، 1992، ج 13، ص 290 وما بعدها.
- (3) - معجم مقاييس اللغة ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 42، ص 19.
- 4) - Une unité discursive restreint : le titre, G. VIGNER, le français dans le monde N° 156 octobre 1980, P30.
- 5) - Une unité discursive, P 30.
- 6) - Convergences critiques : introduction a la lecture du lettratre , C. Achour et 5 rezzou, O.P.U Alger réimpression 1995, P 29.
- (7) - السيميوطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، يناير/مارس، 1997، ص 100.
- (8) - السيميوطيقا والعنونة، ص 106، وينظر كذلك في وظائف العنوان، مقال الدكتور الطيب بودريالة : قراءة في كتاب سيماء العنوان "محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيماء والنص الأدبي، منشورات قسم اللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر، أفريل 2002، ص 26.
- (9) - وكثيرا ما يتوقف الأساتذة الذي يناقشون البحوث الجامعية عند العنوان، ليتبينوا مدى مطابقتها للموضوع، أو مدى مطابقة الموضوع له.
- (10) - ولذلك قد يحيا الكتاب بالعنوان وقد يموت به.
- (11) - ويصبح ذلك أكثر ضرورة في الميادين التي كثر فيها المؤلفات كميدان النحو، وميدان العلوم الإسلامية.
- (12) - والعنوان الأكثر دلالة على ذلك هو العين.
- (13) - الصحاح، تحقيق إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريقي دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط1، 1999، ج 1، ص 20 (المقدمة).
- (14) - العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، 1، ج 1، ص 8.
- (15) - العين، ج 47/1.
- (16) - العين، ج 18/1.
- (17) - ينظر لسان العرب، ج 13، ص 301 وما بعدها.
- (18) - ينظر محيط المحيط بطرس البستاني، مكتبة لبنان، 1993، ص 756.
- (19) - القاموس المحيط، الفيروز أبادي، المقدمة ص.
- (20) - نشأة المعاجم العربية وتطورها، ديزيرة سقال، دار الفكر العربي بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 68.
- (21) - تقرأ كلمة (صحاح) بفتح الصاد على أنها نعت مفرد مثل الصحيح، وذلك نحو شحيح وشحاح، كما تقرأ بكسرها على أنها جمع لكلمة صحيح، وذلك نحو ظريف وظراف، والقراءة بالكسر هي الأشيع، ومنهم من يخطئها (الصحاح 20/1).
- (22) - الصحاح 37/1.
- (23) - الصحاح 37/1.
- (24) - نشأة المعاجم العربية وتطورها ديزيرة سقال، ص 62، وتنظر مواد (ج ف ء) (ف ل ت).
- (25) - لقد أثار هذه القضية السيوطي في المزهري، بنظر الجزء الأول، ص 117، وما بعدها.
- (26) - أساس البلاغة، الرخشي، دار الفكر، بيروت/لبنان، دط، ص 8.
- (27) - أساس البلاغة، ص 8.
- (28) - أساس البلاغة، ص 7.
- (29) - أساس البلاغة، ص 7.
- (30) - تنظر الزمخشري من خلال كتاب أساس البلاغة، بلقاسم حمام مجلة الأثر جامعة ورقلة، ع 2002/1، ص 161.
- (31) - أساس البلاغة، ص 8.
- (32) - النحل 103، الشعراء 195، الأحقاف 12.
- (33) - لسان العرب ابن منظور، ج 1، ص 7.
- (34) - ينظر لسان العرب ج 1، ص 7.
- (35) - ينظر لسان العرب، ج 1، ص 7.